

الوباء الجارف

لرؤجـد آدم وحواء منذ الفين وستين سنة فقط وتوالدوا من ذلك الحين وكانت زيادة اولادهم السنوية اي زيادة المواليد على الوفيات واحداً في المئة فقط لبلغ عدد نسلهم الآن ١٦٠٠٠ مليون (ستة عشر الف مليون) نفس كما هو عدد سكان المسكونة في هذا الوقت ولو وجد في المسكونة عشرة نفوس فقط وقت ميلاد المسيح اي منذ الف وتسع مئة سنة لبلغ عددهم الآن ١٦٠٠٠ مليون نفس كما هو عدد سكان المسكونة الآن اذا كانت زيادة المواليد على الوفيات واحداً في المئة فقط

ولو وُجد فيها ٣٢٠٠ نفس في السنة الاولى من الهجرة النبوية اي منذ ١٣١٨ سنة لبلغ عددهم الآن ١٦٠٠٠ مليون نفس

ولو وُجد في الارض مليون نفس وقت ميلاد المسيح وكانت زيادتهم السنوية واحداً في المئة فقط لبلغ عددهم الآن مئة وستين مليون مليون نفس فاجتمع منهم في كل ميل مربع من الارض الصالحة للسكن أكثر من ثلاثة ملايين نفس حتى لو ارادوا النوم ما وجدوا في الارض مكاناً يسعهم والمرجح ان سكان المسكونة لم يكونوا وقت الميلاد اقل من مئتي مليون من النفوس فلوزاد عددهم على ما تقدم لوجب ان يكون الآن في الميل المربع من الارض الصالحة للسكن ستمئة مليون نفس اي نحو مضاعف سكان اوربا كلها فيصعب المتر المربع ٢٤٠ نفساً لو وقفوا عليه اربعة اربعة لغطوا الارض وارتفعوا عليها ١٢٠ قامة

ومعلم ان متوسط نمو الناس بالتوالد لم يزد الآن عما كان عليه في السنين الغابرة بل نقص كثيراً كما يظهر من مقابلة مواليد بعض الممالك الاوربية الان بمواليدها منذ مئة عام ويشج من ذلك ان الذي منع نوع الانسان من ان يكثر ويملا الارض هو كثرة الوفيات في الازمنة الغابرة لا بالموت العادي بل بالموت التدريج فلو كان معدل الوفيات في السنين الغابرة كما هو الآن لامتلات الارض بسكانها منذ قرون كثيرة فالوبئة الفتاكة والامراض القتالة والحروب والجائعات هي التي ابقت نوع الانسان الي الآن وابقت لنا فسحة من الارض نعيش فيها ولولاها ما استطاع هذا النوع ان يبق في الارض أكثر من الفين وخمس مئة سنة من وجوده ذكراً وانثى الى حين امتلاء الارض به وتعدر ميعشته فيها

واليد الطولى في حصد النفوس حتى لا تكثروا وتملا الارض للطاعون الجارف الذي انتاب نوع الانسان مرة بعد اخرى في العصور الغابرة . ذكر ابن اياس في " تاريخ الدهور " ان

من حوادث سنة ٧٤٩ للهجرة " الفناء الذي وقع بالديار المصرية وعم سائر البلاد فكان يخرج من القاهرة في كل يوم ما ينيف على عشرين الف جنازة ومات في شهر شعبان ورمضان تسعمائة الف نفس ولم يسمع بمثل هذا الطاعون في ما تقدم من الطواعين المشهورة في صدر الاسلام . قال الشيخ شمس الدين محمد الذهبي ان الطواعين المشهورة في مبداء الاسلام خمسة وهي طاعون شبرويه وطاعون عمواس وكان في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقع بالثام وبعالمها سنة ١٨ من الهجرة وطاعون الجارف وقع في زمن عبدالله بن الزبير سنة ٦٧ من الهجرة قبل مات فيه في ثلاثة ايام في كل يوم سبعون الفاً . وطاعون الفتيات كان بالبصرة وواسط قيل انه ابتداء بالمداري الصغار فسمي طاعون الفتيات . وطاعون جاء في سنة احدى وثلاثين ومئة ويسمى طاعون قتيبة مات به الف الف وستائة وخمسون الفاً (١٦٥٠٠٠٠) . ولكن لم يسمع بمثل هذا الطاعون الذي جاء في هذه السنة (سنة ٧٤٩ هجرية الموافقة ١٣٤٨ مسيحية) لانه عم البلاد قاطبة ومات فيه من الناس من لا يحصى عددهم من مسلم وكافر وكانت قوة عمله في بلاد الفرنج واقام دائراً في البلاد نحو سبع سنين حتى عزت جميع البضائع لقلّة الجالب من البلاد وبلغ ثمن الراوية من الماء اثني عشر درهماً في القاهرة بسبب موت الجمال ولم يزرع من اراضي مصر تلك السنة الا القليل بسبب موت الفلاحين فوقع القلاذ ويعت كل وبة قح بمنّي درهم وكادت مصر ان تجرب . ورفع الطعن ايضاً في القلط والكلاب والوحوش ولقد شوهت شي كثير من الوحوش وهي مطروحة في البراري وتحت ابطها الطواعين وكذلك الخيل والجمال والحير وسائر الحيوان حتى الطيور مثل النعام وفي ذلك يقول الصلاح الصفدي

لما افرست صحابي يا عام نبع واربعينا
ما كنت والله نسعاً بل كنت سبعاً يقينا

وقال ايضاً

دارت من الطاعون كاس الفنا فالنفس من سكرته طلحة
قد خالف الشرع واحكامه لانه ثبت بالرأحة

وقال الشيخ زين الدين ابن الوردي

يقولون شمّ الخل في زمن الوباء وفاقاً لما قال الاطباء يا خلي
فان قلت للطاعون تسطو على الوري فقال نعم اسطو واتك في الخل

وقال ابراهيم المعار

فَبَجَّ الطاعون داءً فقدت فيه الاحية
بيعت الانفس فيه كل انسان بجمه .
وَأَلَّفَ فِيهِ ابْنُ حَجْرٍ كِتَابًا سَمَّاهُ بِذَلِكَ الْمَاعُونُ فِي اخْبَارِ الطاعون . انتهى باختصار
وَأَلَّفَ أَبُو الْفِدا رسالة في هَذَا الطاعون قال فيها

” طاعون روع وامات وابتداءً خبره من الظلمات . ما صين عنه الصين ولا منع منه حصن
حصين . سلَّ هندياً في الهند واشتد على السند . وقبض بكفيه وشبك على بلاد اربك . وكم
قسم من ظهر في ما وراء النهر . ثم ارتفع ونجم وهجم على العجم . وقرم القرم ورمي الروم بحجر
مضطرم . وجرَّ الجزائر الى قبرس والجزائر . ثم قهر خلقاً بالقاهرة وتنهت عينه لمصر فاذا هم
بالساهرة . الى ان قال

اسكندرية ذا الوباء سبع يمد اليك ضبته
صبراً لتسمه التي تركت من السبعين سبته

ثم يمَّ الصعيد الطيب وابق على برقة منه صيب . وغزا غزه وعقلان هزه . وعك الى عكا
وامتهد بالقدس وزكي . وصاد صيدا وكاد بيروت كيداً . ثم صدَّ الرشق الى جهة دمشق .
فترجَّ ثم وتمَّ وقتك كل يوم بالف وازيد . ورمي حمص بجبال وصرها مع علمه ان فيها ثلاث
علل . ثم طلَّ الكنة في حماه فبرد عاصيها من حماه “

وكما وصفه كتاب المشرق من اهالي مصر والشام وصفه كتاب المغرب من الافرنج
فتواردت خواطرم في الكلام عليه جداً وهزلاً

والظاهر ان هذا الوباء انتشر من احد مربعيه (١) في بلاد الصين وسار منه بطرق التجارة
الثلاث الواحدة طريق خليج فارس الى البصرة ببغداد ومنها الى بلاد العرب ومصر وشمال
افريقية . والثانية طريق الهند الى افغانستان وجنوبي بحر قزوين والبحر الاسود وبر الاناضول .
والثالثة طريق تركستان الى القرم والقسطنطينية ومنها الى سائر البلدان الاوربية

وكان تجار جنوى والبنديقية يدخلون البحر الاسود بسفنهم وينزلون حيث مدينة تيودوسيا
الآن ممَّا يلي مدخل بحر ازوف وهناك رفاً امين فينوا فيه مدينة حصينة سموها كفا . وغزا
التر هذه المدينة سنة ١٣٤٧ (٥٧٤٨) وحصروها وضيَّقوا خناقها وبلغهم طاعون الصين حينئذ
بطريقه الثالثة وقتك بهم فتكاً ذريعاً حتى كاد يفنيهم فجعلوا بقذفون موتاتهم بالمجانق الى المدينة

(١) يعلم للطاعون الآن خمسة مراعٍ او مواطن اثنان منها في بلاد الصين وواحد في بلاد الهند وواحد
في بلاد العرب وواحد في افريقية

لكي يفعل الوباء باعدادهم ما نزل بهم . فكان كما ارادوا وفتا الوباء في المدينة فهجرها سكانها ونزلوا في سفنهم وحملوا العدوى معهم الى القسطنطينية وبلاد اليونان وايطاليا فانتشر فيها سريعاً انتشار النار في الهشيم ولم يحل عليه الحول حتى بلغ مرسلينا وانتشر في فرنسا واسبانيا وبلغ انكلترا ووصل في السنة التالية الى المانيا وروسيا وسكندنافيا وشمل اوروبا كلها في اقل من اربع سنوات . ولم يذكر في تاريخ الانسان بلية عمّت الدنيا كما عمها هذا الوباء او كانت فتكها ذريعاً مثل فتكها وشرها ويلاً مثل شره

وكان في السفن المشار اليها رجل اسمه ده مُسَس عاد بها الى جنوى ووصف حال الوباء فقال " كنا الوفا فلم يصل منا عشرة فبادر الاقارب والاصدقاء الى لقائنا ولكن ويل لنا فاننا اتينا معنا بسهام الموت المستنونة وفتننا فيهم سم الهلاك بنفسنا " وقال انه مات اربعون الفا من اهالي جنوى فلم يبق فيها سبج سكانها ومات من اهالي البندقية مئة الف نفس ومن اهالي نابلي ستون الفا ومن اهالي سينا سبعون الفا ومن اهالي فلورنسا مئة الف

وابلغ من وصف هذا الوباء من الاوربيين بكاشيو في كتابه المسمى دكامرون اي مئة قصة قال " كم من بيوت فاخرة ومن قصور مشيدة اقفرت من سكانها حتى لم يبق بها احد . كم من عيال انقرضت ومن اموال تركت لا وارث لها . كم من فتيان وفتيات في عنفوان الصبا وريغان الشباب لو رام جالنيوس وبقراط واسكولايبوس في الصباح لقالوا انهم في اتم الصحة والعافية تغدوا مع اقاربهم وتعشوا مع الذين سبقوهم الى الآخرة "

وتنشى الوباء من مرسلينا في بلاد فرنسا ودخل اديرة الرهبان فلم يبق فيها دياراً وكان البابا في انيون فدخلها وامات من اهلها ١٨٠٠ نفس في ثلاثة ايام ووصل الى باريس فقتل من اهلها اكثر من خمسين الفا

ووصل الى انكلترا في اواسط سنة ١٣٤٨ وعاث فيها سنة كاملة وكان سكان لندن حينئذ ٤٥٠٠٠ نفس فامات عشرين الفا منهم

والمظنون ان سكان اوريا كانوا قبل انتشاره مئة مليون نفس فمات به ربعهم اي خمسة وعشرون مليوناً . وقدر عدد من مات به في المكونة كلها ثلاثة واربعين مليوناً ولعلمهم اكثر من ذلك كثيراً وكان اشد فتكاً في ايطاليا فمات به نصف سكانها

وتكرر انتشار الوباء بعد ذلك الى القرن السادس عشر فحقت وطأته قليلاً حينئذ ثم اشتدت في القرن السابع عشر ولا سيما سنة ١٦١٩ فمات به في القطر المصري ٦٣٥ الفا . وتكرر انتشاره سنة بعد سنة الى سنة ١٦٣٥ فمات به في القاهرة حينئذ اكثر من ٣٠٠٠٠٠

نفس وبلغ اوربا سنة ١٦٢٩ فمات به مليون نفس من اهالي ايطاليا . وفنك باهالي ميلان
فكنا ذريعا . ويقال ان اداليا حسبوه بانجبا عن سم يدسه الاشرار لغيرهم من الناس فجعلوا
يشلون كل من يشبهون فيه . وقام بعضهم على بعض كالجائين وكان سكان ميلان نحو ٢٥٠
الف مات منهم ١٤٠ الف في قول و ١٨٦ الف في قول آخر

ثم انتشر مرارا كثيرة بعد ذلك وفنك بمئات الالوف ولا سيما سنة ١٦٦٥ حين دخل
مدينة لندن اخرمرة - اتاها من ازير ففعل بها فعلا ذريعا كان سكانها خمس مئة الف فقتل
منهم نحو سبعين الفا وخرج منها ثلاثة آلاف جنازة في ليلة واحدة . وحرقت لندن في السنة
التالية ثم لم يعد يظهر فيها وافدا بعد ذلك لكنه انتشر في بقية اوربا ووصل الى بلاد النمسا
فامات من اهالي فيينا سبعين الفا على قول ومئة واربعين الفا على قول آخر وايتد من فينا الى
براغ فقتل ٨٣ الفا من اهليها

وعاد الى الانتشار في بداية القرن الثامن عشر قال الجبري في حوادث سنة ١١٢٥
هجرية (تعادل سنة ١٧١٣ مسيحية) حدث في القاهرة طاعون كان ابتداءه في غرة ربيع
الاول وتناقص في اواخر جمادى الآخرة ولم يزد على ذلك . ووصل هذا الطاعون من الشام
الى مرسليليا سنة ١٧٢٠ وعاث فيها فبانت وفياته الف في اليوم وكان الناس يهرون من
المطعونين هربهم من الاسد ويتركونهم بلا طعام ولا شراب او يدفنونهم الى بيوت يقيمون
فيها ويرمون اليهم الخبز من كواها بالآت كالجائق ويبقي في المدينة خمسة عشر شهرا فقتل
اربعين الفا من اهليها و ٨٨ الف من البلاد المجاورة لها . وهو الطاعون الاخير الذي دخل غربي
اوربا الى ان ظهر حديثا في بلاد البرتغال

ووصل الطاعون الى اميركا سنة ١٧٥٥ اوصله اليها رجل ارمني فمات به ٤٣٠٠ نفس
من سكانها

ولما جاء بونايرت الى هذا القطر والقطر السوري كان الطاعون فاشيا فيها وتردد عليهما
وعلى البلاد المجاورة لها حتى بلاد الروس مدة اربعين سنة

وما قيل في الطاعون يقال في الجدري والكوليرا ونحوها من الامراض الوبائية . وفي
وسائل القتل العديدة كالحروب والمجاعات والمسكرات فانها كلها تقتك بنوع الانسان وتمنع
ازدياد السكان لكن وطأها خفت كثيرا في هذه الايام فلم يعد فنكها عشر مئتين ما كان في
السنين الغابرة ولا بد من ان تمتلي الارض بسكانها بعد قرون قليلة اذا لم يشع بينهم داء العم
الذي كثر الآن بين الشعوب الاوربية